# مذهب "تين" فى النقد

نجد فـى الرجال الأبيض والأسـود، والأصفـر والأحمـر، ونجد فيـهم الذكى والغبـى، ونجد النشيط والخـامل. ونجد اخـتلافات كـثيرة فـى الطبائع والعادات، وطرق الفهم، والتصور والإدراك والعقائد، ونظام العيش فى الحياة والاجتـماع، وغيـر ذلك. ويقول العلماء والبـاحثون إن لذلك أسـبابًا ثلاثة: الجنس والبيـئة، والزمن. وقد نوه بشـىء من هذا ابن خلدون فى "مقدمـته" وسبب اخـتلاف الأخلاق والألوان إلى طبـيعة الإقلـيم. ونسب إلى السودان الخفـة والطيش والميل إلى الطرب، ووصفـهم بالحمق، وغـير ذلك مما سبـبه طبيعة الأقاليم الحارة. وفى كلام ابن خلـدون عن العرب وأخلاقهم العمرانية والاجتمـاعية، ما يدل على أنه يقصـد بذلك خواص الجنس وأثره فى الأمم، واختلاف الأمم بعضها عن بعض، بسبب اختلاف الأجناس والبيئات.

هذا أساس مذهب تين "Taine" العالم النقاد الفرنسى[1].

---

(١) هو عالم فيلسوف وأديب ناقد فرنساوى من أكبـر علماء القرن التاسع عشر فى فرنسا ولد سنة ١٨٢٨ ومات سنة ١٨٩٣ وهو ثالث ثلاثة من أصحاب المذهب الإيجابى (Positivis-me) القائلين أنه لا توجـد معلومات صـحيحة يصح الجـزم بها إلا إذا قام عليـها برهان علمى. وأن كل شىء فى الوجود يرجع إلى سبب علمى معقـول. وأنكروا الغيبيات (ما وراء المادة) والأول والثانى من هؤلاء الثـلاث أو غست كنت (Auguste Comte) وأرنست رنان. (E. Renan) وقد انتشر مـذهبهم فى فرنسا وغيرها انتشـارًا عظيمًا، وأثر فى العلم والأدب والاجتـماع والفلسفـة إلى آخر القرن السابع عـشر، ولا يزال له تلاميـذ وأتباع. وسنشرح مذهب تين الفلسـفى شرحًا موجزًا لتتوصل به إلى الكلام عـلى أثر فلسفته فى الأدب ومذهبه فى النقد.

يقـول تين: "الرجل ثمرة مـن ثمرات البـيئـة التى ولد وتربى فـيهـا، كالشجرة تنمى فى الأرض التى نبت فيـها أصلها. وأنه يمكن أن ترجع جميع الأسـبـاب التى يكون الرجل إلى ثلاثة أصـلية: الجـنس والبـيئـة الطبـعـيـة والاجتـماعية ثـم الزمن الذى تكونت فيه حـياته العقليـة. قال: "ولا يمكن معرفة الشخص إلا إذا وقف الإنسان على هذه الأشياء، لأنها الوسائل الثلاث اللازمة لمعرفته". وكل طرق تين فى البحث على هذه الأصول. وطريقته هذه من أهم الطرق وأنفعها، لأنها تحمل الناقد على دراسة ووصف الأمة التى فيها نشأ الكاتب، وإلى البلد الذى عاش فيه، والمدنية التى تأثر بها.

وأصل مذهب تين بناء الأحوال النفسية، من فكر وإرادة، وقوة وضعف فى الرأى، على أسـباب جسـميـة. أى على ما يسمـونه الآن "علم وظائف الأعضاء". لأنه يرى أن جـميع الأفكار، والإحساسات، متـصلة اتصالا تامًا بحـركة الأعـصاب. وعنده أن الوسـائل إلى معـرفة الحـقائق، هى الحـواس والإلهامات، ومـا عدا ذلك كذب وافتراء، مما لا يصح أن يـهتم به العلماء. فكانت طريقته علمية صـرفة، فأراد أن يدخل الأدب والبلاغة فى هذه الدائرة العلميـة، وأن يجعلهـا من العلوم الاجتـماعيـة. وإذا كان يبنى مـذهبه على التـجارب العلمـية، أراد أن يجـعل الأدب والبلاغـة إحدى هذه التـجارب، ليتوصل بها إلى الحكم على الأفراد والمجـتمع - كما أراد قبله "سنت بوف" أن يجعل دراسة البلاغة كتـاريخ طبعى للأفكار والعقول - ولأن هذه الحوادث والأعمال التى تمر فى المجـتمع وتملأ البلاغات، هى التى يستمـد منها الكتاب والشعـراء معلومـاتهم وأفكارهم. قال تين: ". . . . يجـب أن يكون أساس التاريخ "التـحليل" العلمى للنفوس، وأن مـا يفعله المؤرخ لإظهـار الحوادث

الماضية وإيضاحها يفعله الكاتب والقصاص لإيضاح الحوادث الحاضرة . . . إذ ليس الضرر فى الجرى وراء الأحلام فقط، أو فى ترك النفس تسبح فى الخيالات، ولكنه أيضًا فيما ليس محققًا، ولو كان محتمل الوقوع. لأن المخ خلق لحفظ الحقائق، كما أن البصر خلق لإدراك المبصرات. إدراكًا واضحًا. ومتى اهتمت العقول بغير الحقائق، دبت فيها الأمراض دبيبًا، كالعين تضطرب عند اضطراب الأشياء التى تراها فالحقائق هى سلامة العقول".

وبناء على هذا المذهب لم يعتقد تين بغير أثر الحواس، وعنده أن كل موجود عبارة عن جزء من سلسلة حركات وإحساسات.

هذه الطريقة العلمية البحتة، المبنية على المشاهدات والتجارب، هى التى بنى عليها تين مذهبه فى نقد الأدب والبلاغة. لأن كل نقد عنده عبارة عن ملاحظات نفسية (بسيكولوجية) علمية. إذ البلاغة أثر الاجتماع، ونتيجة الأسباب الثلاثة التى ذكرناها. أى أن الأدب والبلاغة على رأى تين، نتيجة لازمة لتلك الأسباب الثلاثة التى هى الجنس والبيئة والزمن. فكان من غرض تين أن يؤسس مذهبه فى النقد الأدبى على قواعد ثابتة، ويجعله علمًا من العلوم وأراد أن يبنيه على الأسباب الطبيعية والاجتماعية الثابتة، ويحكم على ذلك بناء على ما فى الاجتماع. إذ لا يمكن فى نظهر معرفة الإنسان إلا بمعرفة هذه الأسباب الثلاثة. ولم يكن غرض تين أن يقرأ الكتب لنفسها، بل كانت دراسة الكتب لديه وسيلة لمعرفة أحوال الأمم، فهى بمثابة مقياس "لجنس نبض" الأمم والشعوب[1].

(١) وهذا خلاف مذهب سنت بوف الذى كان من غرضه أن يعرف أمزجة الأشخاص وخواصهم الذاتية من كتاباتهم.

لا شك أن الإنسان ثمرة البيئة والزمن والجنس. ولكن هذه أسباب عامة، يندمج فيها أكثر من الأسباب الأخرى، وليست وحدها تؤثر فى نفس الشخص وتربيته. هنالك حوادث خاصة، وأحوال نفسية، واستعدادات فطرية، وأمراض عقلية وعصبية . . . وهناك قوة وضعف فى الجسم والعقل، وفى التصور والخيال. وهناك أحوال كثيرة لا تعرف إلا بدراسة الشخص نفسه منفردًا، أو بعيدًا عن كل المؤثرات العامة الأخرى. كل ذلك يجب اعتباره والرجوع إليه فى "تحليل" نفوس الأشخاص وآثارهم العقلية والكتابية. وإنما مثل من يحكم على الشخص بمجموع ما يحيط به وباندماجه مع غيره، كمثل الطبيب، يمتحن الجسم كله ليتوصل بذلك إلى الحكم على عضو خاص، بدون نظر إلى العوارض الخاصة بذلك العضو. نجد فى الأمة الواحدة، وفى البلد الواحد، وفى الأسرة الواحدة وفى البيت الواحد، عقولا مختلفة وأفكارًا مختلفة، وأميالا وأهواء مختلفة، فكيف نفسر ذلك على طريقة تين؟ الاختلافات الظاهرة فى الخلق بين أخوين من طول وقصر، وبياض وسمرة، ونحافة وبدانة، واعتدال واعوجاج، توجد بنفسها فى الأخلاق من حمق ورزانة، وحلم وطيش. وتوجد فى أثر العقول والأفكار، من ذكاء وغباوة، وقوة فى الإدراك، وضعف فى التصور. ومن هنا كانت الاختلافات العظيمة بين الأفراد فى الحكم والإدراك والمبادئ والعقائد وغيرها. الحق واحد لا يتغير، ولكن الخلاف فى طرق الإدراك، وفى النفوس واستعدادها لقبوله. فلابد من مراعاة الأسباب الخاصة فى معرفة الشخص، أكثر من الأسباب العامة فى تكوين نفسه وإدراك حقيقتها.

من أجل ذلك يمكن أن نعتبر مباحث تين كمقدمات عامة لمعرفة الأشخاص، كما لاحظ ذلك أحد النقاد، وقال: إن هذه الطريقة واضحة فى

تفسير الأحوال العامة، كالحكم على شعب أو أمة بأجمعها، كما فعل تين فى كتابه "تاريخ بلاغة الإنكليز" إذ يصح أن يوجد فى هذا الكتاب أدلة صحيحة واضحة فى الحكم على الجنس السكسونى ومميزاته. ولكنا إذا رجعنا إليه وهو يبحث أو يدرس أفرادًا خاصة، وجدنا أن الأوصاف التى استنتجها يصح أن تنطبق على غيرها من جنس آخر وبيئة أخرى.

هذه الطريقة فى النقد هى نتيجة فلسفة تين الإيجابية، ونتيجة أفكاره المذهبية، المبنية على مذهب علمى ثابت، وقواعد ثابتة. وهى نتيجة انتشار مذهب أوغست كونت وأتباعه. فمذهب تين الأدبى هو أثر مذهبه العلمى الفلسفى، مبنى على صلة الأدب بالفلسفة والعلوم، وعلى تسرب المبادئ العلمية إلى الأدب والبلاغة، وأن البلاغة أثر من آثار العلوم، ليست عبارة عن خيالات وتشبيهات فقط، بل هى مجموع أفكار الإنسان ونتائج العقول والقرائح.

ولو أردنا أن نشرح مذهب تين بتفصيل أوسع لطال بنا البحث، وربما عاد علينا ذلك بالملل، لأن الرجل غير معروف عندنا، ولأننا لم نتعود اندماج الأدب فى الفلسفة، ولأن مذهبه مذهب علمى جاف لا يسوغ لنا قبوله.

***